موقف الدكتور المرحوم عبد الله شريط من الثقافة و الإيديولوجية و أثرهما في التنمية الشاملة من خلال كتابه:
"المشكلة الإيديولوجية و قضايا التنمية"

أ.د. سعيد شريفي
المدرسة العليا للأساتذة . بوزريعة.

الملخص :
لقد كثر الحديث في الجزائر حول التنمية الشاملة و عوامل نجاحها، و أسباب تعثرها. و كان لكل مفكر سياسي وجهة نظره في الموضوع . و الدكتور المرحوم عبد الله شريط كان من ضمن الباحثين الذين أعطوا الكثير من عصارة فكرهم لخدمة التنمية و الثقافة التي اعتبرها البوابة الواسعة للتنمية الشاملة في الجزائر، و لكن كم من عظيم قزمته السياسة و ألقت به على هامش التاريخ، ليموت في صمت و يدفن في الظل، و لم يحظ بقليل من أشعة الشمس التي أشرقت على بعض مغنيات الراي، راقصات البطون، رغم ما قدمه للثقافة الجزائرية من إثراء عبر وسائل الإعلام المسموعة و المكتوبة، أذكر على سبيل المثال سجالاته الفكرية مع عدو المدرسة الأساسية في السبعينات، حيث ربط التربية بالثقافة ، و الثقافة بالإيديولوجية، فالثقافة في رأيه تنمي الوعي الإيديولوجي بالانتماء إلى الأمة .

و الإيديولوجية هي خارطة الطريق التي يتحرك فيها رجل الثقافة لتكون الإيديولوجية في خدمة التنمية، حتى يخرج الوطن إلى بر الأمان، وتبقى علاقة الإيديولوجية بالثقافة علاقة أخذ و عطاء، و هو ما أحاول تحليله من خلال هذا المقال المتواضع في إطار مواثيق جبهة التحرير الوطني.

الكلمات المفتاحية :

التنمية الشاملة – المفكر السياسي – الثقافة – الإيديولوجية – جبهة التحرير الوطني .

Summary,

There has been a lot of talk in Algeria about global development, its factors of success, and its failure causes. Every thinker has his personal point of view on the subject. The late Dr. Abdoulah CHRIET is among those researchers who devoted much of their intellectual work to serve the development and culture which he has considered the great gate to global development in Algeria. But how many great men has been minimized by politics and put aside the history and vanished in silence, and buried in the shade, and has not benefit from the sun light which has shined on some Rai singers and belly dancers, in spite of what he has given to enrich the Algerian culture through the different mass media , like his intellectual records with the enemy of the fundamental school during the seventy's as e linked the culture to education , the culture to ideology. According to him, culture raises the ideological awareness and the belonging to a nation.

The ideology is the road map where the man of culture moves thus the ideology will serve the culture so that the nation will get to the secure land. Therefore the relation between the ideology and culture is one of take and give, and this is what I am going to develop through this article in the frame of the documents of The National Liberation Front.

Key Words:

Global development- political thinker-culture- ideology- The National Liberation Front.

الثورة الثقافية بين آفاق المستقبل، و إمكانات الحاضر

في كتابه: "**المشكلة الإيديولوجية و قضايا التنمية**" خصص الأستاذ فصلا حلل فيه المسألة الثقافية في الفكر السياسي الجزائري من خلال النصوص السياسية التي حددت إيديولوجية حزب جبهة التحرير الوطني، وانطلق من إشكالية المفهوم و الشعار و المنهج و الهدف[1] و قبل مناقشة هذه المفاهيم، هناك مفاهيم أخرى أرى من الضروري تحديدها لوضع تصور الأستاذ المرحوم عبد الله شريط في الإطار العام لحزب جبهة التحرير الوطني الذي حدد إيديولوجيته في المواثيق الرسمية بدءا من ميثاق طرابلس و الميثاق الوطني، ثم النصوص الأساسية التي صادقت عليها مؤسسات الحزب في دوراتها العادية و غير العادية. و من المفاهيم التي أريد تحليلها هي:

مفهوم الإيديولوجية، و الثورة الثقافة، و مكوناتها و الأهداف، و كذلك الوسائل و الإمكانات، و مدى ملائمتها مع الأهداف المسطرة لتحقيق الأهداف المعلن عنها، و هي المسائل التي حللها الأستاذ شريط في هذا الكتاب.

مفهوم الإيديولوجية:

لا يهمنا في هذا المبحث تحليل هذا المصطلح من حيث الاشتقاق أو الأصل اللفظي. و إنما المهم هو المفهوم العام الذي يفيدنا في الأفكار التي حللها الأستاذ شريط رحمه الله.

الإيديولوجية هي تصور معين للحياة، و هذا التصور ينعكس على تفكير الفرد و على تصرفاته، و علاقته بالناس، و بالبيئة المحلية و العالمية، و بهذا المعنى تنطبق على كل فرد من أفراد المجتمع و تصبح نظرية معينة في السياسة و الاقتصاد و الاجتماع، و نلاحظ أن الإيديولوجية تنطلق من الفرد إلى المجتمع، و من المجتمع إلى الفرد. و على ذلك فإنّ لكل فرد إيديولوجيته و تصوره للحياة، و كذلك لكل فرد إيديولوجيته .[2] و لكن قلما نجد إيديولوجية الفرد محايدة عن إيديولوجية المجتمع، إيديولوجية المجتمع تحددها النصوص، و إيديولوجية الفرد يحددها السلوك و سلوك الفرد يتأثر بسلوك المجتمع و بإيديولوجيته التي تعكسها القوانين و النصوص، التي تترجم في الحياة العملية للأفراد و لمؤسسات الدولة، و لهذا فإنّ معجم القرن العشرين الصادر عام 1931 م يعرّف الإيديولوجية بأنّها

"منظومة من الأفكار تتبلور على شكل عقيدة سياسية أو اجتماعية تقوم عليها سياسة الحكومة أو الحزب"[3].

و تحتل قضية الإيديولوجية اليوم أهمية كبيرة في العديد من الدراسات التي تحاول فحص الدور الذي يلعبه هذا المتغير في حياة الدول النامية، و قد تعددت الدراسات المتعلقة بقضية الإيديولوجية بعد ظهور النظرية الماركسية

التي وسعت هذا المفهوم إلى درجة استغراقه مفهوم الثقافة.[4] و هو المفهوم الذي اهتم به الدكتور عبد الله شريط – رحمه الله – نظرا لأهمية الثقافة في نمو الفكر الإيديولوجي لكل مجتمع. فعلاقة الثقافة بالإيديولوجية علاقة أخذ و عطاء، فالثقافة تنمي الوعي الإيديولوجي لدى الأفراد. و الإيديولوجية من جهتها تعطي للثقافة خريطة الطريق التي ترسم لرجل الثقافة المحيط، الذي يتحرك داخله في المجتمع الاشتراكي الذي يقوده الحزب الحاكم. الدكتور شريط عندما تناول المسألة الثقافية تناولها في إطار مواثيق حزب جبهة التحرير الوطني، الذي حدد ركائز التنمية الشاملة في الثورات الثلاث :

- الثورة الزراعية.
- الثورة الصناعية.
- الثورة الثقافية.

إذا كانت التنمية الاقتصادية مبنية على الزراعة و الصناعة، فإنّ نجاحهما مرتبط بالتنمية الفكرية و الثقافية التي يضمنها نجاح الثورة الثقافية، و نجاح هذه الأخيرة مرتبط بالفضاء الذي يوفره النظام السياسي لرجل الثقافة كي يسجل حضوره في الساحة الثقافية، و هذا الفضاء يتمثل في حرية الفكر و التعبير و حماية المثقف و المفكر من جهة، و كذلك مدى قدرة رجل الثقافة و الفكر على دخول معترك الحياة السياسية و مؤسسات الدولة لإحداث التغيير من داخل أجهزة النظام نفسه. و الدكتور عبد الله شريط من الذين تفطنوا لهذا الجانب و تساءلوا عن سبب غياب المثقف في الميدان خصوصا رجل الدين الذي يتحمل مسؤولية التغيير الإيجابي، حيث لاحظ أنّ أكبر مرض أصاب العالم الإسلامي هو " الأمية الثقافية و الحضارية التي جعلت الشعوب الإسلامية أقرب إلى البلدان البدائية منها إلى الشعوب المتقدمة، دون أن يكون هناك مجهود يقوم به علماء الدين الإسلامي لمقاومة هذه الأمية التي تفشت في العبادات و المعاملات . فرغم كثرة المنظمات الحزبية و النقابات و المنظمات الجماهيرية التي تعمل على استقطاب مختلف الشرائح الاجتماعية، إلا عنصر واحد غاب عن الساحة و هو رجل الدين، رغم كثرة المواضيع الفكرية و الفلسفية التي تمس المجتمع".[5] الثورة بدون ثوار و بدون عمل ثوري تبقى مجرد شعارات جوفاء، إذن ماهو مفهوم الثورة الثقافية في النصوص السياسية لحزب جبهة التحرير الوطني ؟ و ماهي نظرة الدكتور عبد الله شريط للمسألة الثقافية في الجزائر ؟

مفهوم الثورة الثقافية:

الثورة في المفهوم الاجتماعي تثوير للمجتمع و قلب أوضاعه الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و حتى السياسية، لأنّ العلاقة بين النواحي الثلاث علاقة جدلية. أما الثقافة فهي تشمل جميع العادات و العقائد و الخبرات المكتسبة في المجتمع،[6] لان العلاقة بين النواحي الثلاثة علاقة جدلية، أما الثقافة فهي تشمل جميع

العادات و العقائد و الخبرات المكتسبة في المجتمع.[7] أما المرحوم مالك بن نبي فيرى أنّ الثقافة هي الإطار العام، الذي يوحد بين جميع فئات المجتمع الواحد و تعطيه الطاقة للانطلاق نحو التمدن و التحضر و تحفظه من الانزلاق نحو الهاوية،[8] و لكن الدكتور عبد الله شريط له تصور فيه بعض التحفظ على التسمية، فما هو تصوره؟

الثورة الثقافية في فكر الدكتور عبد الله شريط:

في الفصل الخاص بالثورة الثقافية من كتابه المذكور تحدث عن الثورة الثقافية و فلسفة الرجوع إلى الأصل ، و الأصل هنا لا يعني الأصل البيولوجي، و لا العرقي، و لكن الأصل الحضاري و الثقافي الذي يتكون من اللغة العربية و الدين الإسلامي، و التاريخ المشترك و التراث الثقافي بصفة عامة، هذه الأسس التي تشكل الهوية الوطنية للشعب الجزائري هذه الهوية التي ترتكز على ثلاثة دعائم هي الثورية و العلمية ، و الوطنية. فكونها ثقافة وطنية يعني بالدرجة الأولى التمسك باللغة العربية المعبرة عن القيم الثقافية في بلادنا، و أن تتحقق لها الفاعلية الحضارية، حتى تتمكن من مقاومة الانحطاط الثقافي و الاحتقار الذي لحق الكثير من الجزائريين من الغرب فيما يخص اللغة العربية، و لكي تكون ثورية عليها أن تساهم في العمل التنموي و الترشيد للشعب و إعانته على تصفية رواسب الإقطاعية، و أول ما يميز الثقافة الثورية هو جعل الإنسان قوة فاعلة بالتثقيف و التكوين و رفع قيمة الجماهير الشعبية فكريا و ثقافيا و سياسيا إلى مستوى النخبة للقضاء على الفواصل الثقافية بين طبقات المجتمع[9].

لكن الدكتور شريط يرى أن الحديث عن الثورة الثقافية حديث شعار و ليس حديث محتوى، ثم قارن بين الثورة المسلحة و الثورة الثقافية وأعاد إلى الذهن إشكالية الإقدام و الإحجام، الانطلاق أم الانتظار، هل ننتظر توفير رجال الفكر و الثقافة و جميع الإمكانيات المادية و البشرية للشروع في الثورة الثقافية، أم نشرع في الثورة الثقافية لتوفير رجال الثورة الثقافية، و رأى أنّ ثورة التحرير دامت ثماني سنوات و لم تنتج إلا ميثاقي الصومام و ميثاق طرابلس، أما في ميدان بناء الدولة جاء ما سميناه بالثورة الثقافية[10]. هذا المصطلح المستورد من واقع يختلف عن الواقع الجزائري، و هو الواقع الصيني، فماوتسي–تونغ هو الذي تزعم هذه الثورة سنة 1967[11]، و الذي كان يريد نشر أفكاره و ثقافته و توجهاته عن طريق الملصقات الحائطية المهاجمة للبيروقراطية و الرجعية[12]، و هو التصرف نفسه الذي لاحظناه عندنا في الجزائر، حيث اعتمدنا سياسة الشعارات الجوفاء، و هو ما جعل الدكتور شريط يقف متحفظا من بعض المفاهيم التي بقي النظام يلوكها في الصحف و المناشير التي ما ان تمر المناسبة التي نشر فيها حتى يلقي بها في سلة المهملات، لأن التغيير الحقيقي في المخبر و ليس في المظهر، و أنّ العبرة في الجواني، و ليس في البراني. و بهذا فإنّ الدكتور

شريط يرى " أنّ التغيير الجذري يكون في الذهنية الجزائرية و في الواقع الثقافي عامة، و هذا يتطلب من الوسائل المادية و البشرية و العوامل النفسية ما يفوق إمكانياتها و التجارب التي وقعت في بعض البلدان التي سبقتنا إلى هذه التجربة تجعلنا نقف متحفظين من الحديث عن الثورة الثقافية"[13]. و هذا التحفظ راجع إلى ما لاحظه الدكتور شريط من غياب الفكر الإيديولوجي من حياتنا السياسية هذا الغياب الذي ازداد بروزه في السياسة الثقافية[14]، الدكتور شريط رغم تحفظه من الثورة الثقافية كشعار إلا أنه لا يريد المزيد من الانتظار لإنجاز الثورة الثقافية، لأنّ هذا الانتظار قد يعمق الأزمة الثقافية و يطيل عمر التحصيل الثقافي و يعطّل عجلة التعريب التي كان يطالب بها خصومه و معرقلوه، كما كان يطالب خصوم الثورة التحريرية بتأجيل انطلاق حرب التحرير إلى أن تتوفر الوسائل المادية و البشرية. لو انتصر هذا التوجه تعطلت الثورة سنينا طوالا و تحررت البلدان المجاورة قبل أن تتحرر الجزائر. و في مقابل دعاة الانتظار نجد موقفا آخر لا يقل خطورة عن الأول و هم المغرورون المرتجلون و المجازفون، الذين لا يقدرون عواقب الارتجال و لا يقرؤون أي حساب لوسائل تحقيق الأهداف المسطرة في برامج الثورة، المسألة مسألة تخطيط و إتقان الخطة و رصد الإمكانيات حسب ثقل المهمة. الدكتور شريط يقول: "دعوى الانتظار و بطلان هذه الدعوة ذريعة لتأجيل الثورة وأن مظاهر الثورة هي الثورة و أن سيرها هو كل شيء"[14] إذا كان من المهم أن تسير الثورة في طريقها إلى الأمام مهما كانت النقائص، فإنّ الثورة الثقافية أيضا مطالبة بشق طريقها نحو المستقبل مهما كانت الصعاب و العراقيل الناتجة عن الخلل الإيديولوجي تارة، و عن سوء فهم الهدف تارة أخرى، و هنا يتدخل العمل الإيديولوجي . و الدكتور شريط يرى أن لا خطر علينا في الانطلاق سواء في الثورة المسلحة، أو في ثورة البناء، سواء كان بناء الهياكل الاقتصادية التي تقوم بها الثورة الصناعية، أو الثورة الثقافية المطالبة بتكوين القوى البشرية. غير أنّ الأستاذ شريط يحذرنا من التعود على عدم الاهتمام بعوامل الفشل أو النجاح، و عدم البحث عن السلاح الفكري الذي نواجه به الخطر، فإذا نجحنا في الثورة المسلحة بسلاح محدود، و بإمكانيات متواضعة، فإنّ نجاح الثورة الثقافية بدون فكر إيديولوجي، و بدون تخطيط محكم تراعى فيه الأهداف و الوسائل، نجاح غير مضمون العواقب، و يمكن أن نسير في طريق مسدود ينقلب فيه السحر على الساحر. و في هذا المضمار يقول الدكتور شريط:

"لقد انطلقنا في بناء الدولة، معتمدين على تجربتنا المسلحة، فأقمنا الأجهزة المادية للدولة دون المحتوى الفكري للدولة، و أقمنا كل المؤسسات التي تبنى عليها الدولة الاشتراكية، و لكن ما يجري في داخلها من أفكار الناس و سلوكات أجهزتها البشرية هو من صميم السلوكات الرأسمالية، بل الفوضوية التي هي ليست اشتراكية و لا رأسمالية، و تعودنا هذا السلوك الذي نسميه ثورة و نمارسه فوضى فأصبح في نظرنا طبيعيا لا يستحق المراجعة و الوقوف ضده"[15].

العبرة إذن بالمحتوى و ليس بالشكل و الهياكل. و هذا يعود حسب -الدكتور شريط- إلى الفقر الفكري و الإيديولوجي الذي نملكه، و هذا الفقر هو الذي سبب لنا نكسة إيديولوجية جعلتنا نعوض أجهزته و إدارته و مزارعه من حيث جنسية العاملين فيها بإطارات وطنية محرومة من أي تكوين إيديولوجي، جعلنا نحتقر لغة الشعب فنعتبرها لغة تقهقر و تخلف. و بهذا يكون عبد الله شريط قد بيّن أنّ اللغة العربية عنصر أساسي في الثورة الثقافية، فبدون لغة وطنية لا يمكن أن نحدث ثورة في الفكر. و هذا ينطبق على الميادين الأخرى،الإطارات في الميدان الزراعي لا تملك تجربة في الميدان الفلاحي و تفرض وصايتها على الفلاح باسم الثورة الزراعية، و الإطارات في الميدان الصناعي تضع المصانع المستوردة بين أيدي العمال، و هم لا يملكون أية تكوين في الميدان، و نسمي هذا بالثورة الصناعية. فمالك بن نبي، رحمه الله، يقول: حين نستورد ما أنتجته الحضارة الغربية لا ننشئ الحضارة و لكننا نكدس الحضارة"[16].

و يلاحظ الدكتور شريط أنّ النقص التكويني و المعرفي يشترك فيه المهندس، الفلاح، المعلم، الأستاذ و كل من تحمل مسؤولية في الإدارة، و هذا يعود إلى إهمال الدولة الجانب الفكري و الخلقي في الثورة. أي إفراغ الثورة الثقافية في محتواها الإيديولوجي ممّا حوّل الثورة إلى الثروة، و إلى شعارات براقة توهم الناس بأنّهم ثوريون، و هم من الثورة بعيدون، لأنّ الثقافة و التكوين تبدأ منذ التخرج من مؤسسات التعليم إلى آخر لحظة من الحياة.و الثورة الثقافية تعد أخطر الثورات و لكنها أقرب إلى الانزلاق، و لهذا كان المجهود الإيديولوجي في الثورة الثقافية أهم و أخطر منه في مجالات البناء السياسي[17]. و هناك مجال آخر تناوله الدكتور شريط في عملية البناء الثقافي، واعتبره جزء لا يتجزأ من الثورة الثقافية، و هي الفنون الشعبية التي كادت أن تندثر في عهد الاستعمار، و لكن أعيد لها الاعتبار و أصبحت الجزائر قادرة على الوقوف أمام الشعوب ذات الحضارات القديمة. و الدكتور شريط يؤكد على ضرورة الاعتناء بهذا الجزء من الثقافة الوطنية التي لا يمكن أن تبلغ مرامها إلا باللغة العربية. و لكن العنصر الفكري و هو الأهم، و يتمثل في تحلي الواقع المنبعث من مقابر التاريخ، و التعرف على اللغة العربية بكمالها و نقائصها، مع العناية بحياتنا الروحية و ما بقي من الدين الحق، وانحراف الباطل. و هنا بيّن الدكتور شريط المراحل المنهجية الواجب إتباعها في عملية البناء الثقافي لإنجاز الثورة الثقافية، إن جاز لنا أن نسميها ثورة ثقافية:

1- تحليل الواقع الفكري و العناية باللغة العربية و الوقوف على مواطن الخطأ و الصواب فيها، و عند منتقديها، و خصومها، و المدافعين عنها.

2- تحليل الظاهرة الدينية و تمييز الحق من الباطل عند خصومه و المدافعين عنه.

3- إحداث تغيير عميق و جذري، و هذا يتطلب العلم و الإرادة و الجرأة و الفكر المتحرر الذي يرنو إلى المستقبل و لا يتراجع إلى الوراء[18].

و يرى الدكتور شريط أنّ المرحلة صعبة، نظرا للعقلية التي تتحكم في الأفراد، و شمولية المشاكل التي مسّت كل مرافق الحياة في الميدان الاجتماعي و الإداري و الثقافي، و هي الميادين التي يحتاج تسييرها إلى القلم و الفكر، أكثر مما تحتاج إلى الآلة. فإذا كان الفكر يستطيع أن يستغني عن الآلة لأنّه هو مخترعها، فإنّ الآلة لا تستطيع أن تستغني عن الفكر الذي يوجهها توجيها يكون في خدمة من اخترع الآلة. و قد ذكر الدكتور شريط بعض الأمثلة من الواقع المعيشي، و منها التناقضات الملاحظة في الإدارة و المجتمع. الواقع الإداري واقع أوروبي، فيه تعقيدات يصعب على المواطن إدراكها و التكيّف معها. و حتى بعض الإطارات الإدارية يصعب عليها فهم الآليات القانونية التي تتحكم فيها، في حين أنّ الواقع الجماهيري تطبعه الأمية. ليست الأمية العلمية فقط، بل و حتى الأمية الفكرية و السياسية. فقد يكون الإنسان أميا في المعرفة العلمية و التقنية، و لكن يملك ثقافة فكرية و سياسية تجعله يحلل و يفكر و يتصور حلولا لمشاكل في منتهى التعقيد التي يصعب على المثقف في الميدان العلمي حلّها. و لهذا يرى الدكتور شريط أنّ دراسة هذا الواقع دراسة تحليلية نقدية لإيجاد الحلول للمشاكل المطروحة على الساحة الاجتماعية مسألة ضرورية[19]، و لكن هذه الدراسة تتطلب توفير مناخ سياسي و فكري لطرح القضايا طرحا موضوعيا بعيدا عن التشنج الإداري. و هذا لن يتأتى إلا بتقرب الإدارة م الشعب، و نزول المسؤولين إلى الميدان، و لكن هذه الظاهرة تتطلب ثورة في أفكار المسؤولين القائمين على شؤون المواطنين. هذه الثورة التي تجعلهم يدركون أنهم جزء من الشعب، و أنّ الصواب قد يكون عند العامي أكثر مما يكون عند المسؤول. وهنا يأتي الحديث عن إشاعة الفكر الديمقراطي الذي يسمح فيه القانون للمواطن البسيط أن يقول لأكبر مسؤول أخطأ. عندما يخطئ، و يقول المسؤول الكبير للمواطن البسيط قد أصبت عندما يصيب، لأنّ إبقاء القطيعة بين الشعب و الإدارة و بينه و بين الإطارات و بينه و بين لغته و ثقافته لن يزيد الشعب إلا أمية و نفورا و لن يتغير الأمر كثيرا، و تبقى الأمور كما كانت في الحكم الأجنبي".[20] و هنا نكون قد حكمنا على الثورة الثقافية بالموت قبل ميلادها.

و قد ذكر المؤلف بعض الأمثلة منها:

1- إجراءات 1971 التي جاءت لتعالج قضية اللغة العربية في التعليم، إلا أنها كانت إجراءات تتعلق بالشكل دون المحتوى، و لهذا رأى الدكتور شريط ضرورة إزالة الزوائد و القضاء على الحشو الفكري و المضموني للشروع في إزالة الحواجز بين الشعب و دولته، حتى لا تبقى المناسبات التي تحدث من

حين لآخر المحطة الوحيدة للقاء الشعب حكومته و عن طريق خطب المناسبات التي ينتهي مفعولها و آثارها بانتهاء المناسبة التي تم فيها اللقاء و التخاطب.

2- الجامعة: يرى الدكتور شريط، أنّ الدور الطبيعي للجامعة هو تحليل مخبري لبنية المجتمع و تركيباته التاريخية و الثقافية و التراثية المادية منه و الروحية، مع تناول كل هذه الجوانب بفكر نقدي حتى تصبح الجامعة و معاهدها المختلفة مصدرا لمعرفة كل ما يتعلق بحياة المواطن و الوطن، و بهذا تنزل الجامعة من برجها العاجي إلى الساحة الشعبية، و لكي تستطيع الجامعة أن تضطلع بمهمة إنجاز الثورة الثقافية عليها أن تنتهج طريق الرجوع إلى الأصل، الذي يأخذ المضمون الإيديولوجي و يترك الشعارات العاطفية التي تحول دون الوقوف على حقائق المشاكل التي تمس الشعب في عمقه الثقافي و الحضاري. و قد ذكر المؤلف أمثلة من كلية العلوم الطبية و الصيدلانية التي يجب أن تأخذ في حسبانها التراث الطبي الوطني و وسائل العلاج الشعبي ثم تفتح الطريق نحو التطور الحديث و ترك ما لا يتماشى مع روح العصر، و كذلك معاهد الحقوق عليها أن لا تهمل التقاليد إلى مستوى عنايتها بالقوانين الحديثة، و معهد الآداب كذلك يجب عليه أن يعتني بالتراث الفكري و الثقافي و فنون الشعب و العوامل المشتركة بين الدول الشقيقة، و العناية بهذه المسائل ترجع المؤسسات التعليمية إلى الأصل و تفتح الطريق للدخول في الثورة الثقافية من بابها العريض، و يكون ذلك أسلوبنا الخاص الذي يتماشى مع طبيعة مشاكلنا لتحقيق ثورتنا الثقافية مع تماشينا مع طبيعة العصر عصر الفكر العلمي، فكر التحليل و دراسة الواقع و تغييره.[21]

و هناك عنصر آخر له من الأهمية بمكان في الثورة الثقافية، و هو العنصر البشري المتمثل في الإطارات المثقفة و الإطار المثقف في فكر الدكتور شريط، ليس هو "المتبحر في العلوم، وإنما هو من يسيطر على مادة ثقافية و يتحكم فيها و يسيطر عليها، و يكيفها مع الحياة"[22] و قد صنف الكاتب المثقفين إلى قسمين من حيث لغة الثقافة.

الصنف الأول: ثقافة عربية.

الصنف الثاني: ثقافة أجنبية.

الصنف الأول يعيش في أرض ثقافية قاحلة، حتى و إن كانت تربتها جيدة، و لكنها ثقافة أقرب منها إلى الكلام و اللفظ لا إلى الفكر.

أما الصنف الثاني فهم اكتفوا بثقافة جاهزة تعب عليها أبناؤها طيلة قرون و هيئوها لحضارة غير حضارتنا فتلقف منها أصحابنا صورها و أشكالها و أهملوا روحها.[23] و في هذا المعنى يذهب المرحوم مالك بن نبي إلى القول: " عندما نشتري المنتجات الحضارية الغربية نشتري فقط الهياكل و الأجساد، و لا نشتري روح الحضارة، شوارعنا مكدسة بأنواع السيارات الفخمة و مكاتبنا مجهزة بالأجهزة العصرية، و لكن لم نشتر طريقة التفكير، المشكلة هي مشكلة الإنسان، و لهذا فإنّ العالم الإسلامي يعيش ظاهرة الحضارة الشيئية".[24] و في التوجه نفسه يذهب ألبرت شفتر حين قال: "إنّ جوهر الحضارة جوهر أخلاقي و ليس ماديا"[25].

ثم إنتهى المؤلف إلى العامل المشترك بين هؤلاء و هؤلاء، و هو انقطاعهم جميعا عن الشعب و عدم استفادة المجتمع من ثقافتهم، سواء كانت عربية أو أجنبية، ثم نقل شهادة الدكتورة بنت الشاطئ التي كتبها في إحدى أعداد جريدة الأهرام، حيث تساءلت عن سبب القطيعة بين المشرق و المغرب، و بيّنت أنها قد أخذت العلوم الأدبية و النحوية و التجويد و السيرة النبوية من علماء المغرب، تونس، مراكش و الجزائر. ليطالب المثقفين الجزائريين بالرجوع إلى أصولهم الثقافية، ثم يشير إلى سبب اغتراب المثقفين عن مجتمعاتهم فيعود إلى اندماجهم في فكر الثقافات الأجنبية و جهلهم بتراث ثقافتهم الأصلية و غرس عقد النقص في نفوس الأجيال الصاعدة. و يرى أنه من الواجب الأخلاقي و العلمي على هؤلاء أن يرجعوا إلى الأصل، و ذلك يبدأ باستكمال النقص اللغوي مهما كانت الصعوبات و بهذا الاستكمال يدخلون حلبة السباق،[26] و هو سباق نحو خدمة الشعب و تطوير الثقافة الوطنية لجعلها في مصاف الثقافات العالمية، و هذا لن يتأتى إلا بالتفتح على حضارات العالم، حتى لا تتعرض ثقافة المجتمع للاختناق و الموت البطيء مصداقا لقول مالك بن نبي، رحمه الله، "من العبث أن نضع ستارا حديديا بين الحضارة التي يريد العالم الإسلامي تحقيقها و الحضارة الحديثة"[27] ، و لكن فتح باب الاستفادة من الخارج، لا يعني استبدال الثقافة الوطنية بثقافة جاهزة ثقافة بورجوازية تقوم على الشهوات و تنتهي إلى التفسخ و الانحلال. و الأداة الأساسية لهذه الثورة هي اللغة العربية، لأن البلدان التي خاضت غمار الثورة الثقافية مثل الصين، اليابان، كوبا و الاتحاد السوفياتي لم تقم بهذه التجربة بغير لغتها الوطنية[28]. و هذا يتطلب العودة إلى الأصل و هو التراث الوطني الذي نتولاه بالنقد و التحليل و الكشف و التقييم الموضوعي بدون غرور و لا تبجح أو تهديم أعمى أو فكرة مسبقة، و لكن نجاح هذه العملية التنظيمية يجب أن يكون مصحوبا بقوانين إجرائية يحاسب بها المخطئ على خطئه، و يكافئ فيها المجد على جديته، و في نظر الأستاذ الدكتور شريط إنّ الثورة الثقافية يجب أن تكون مثل الثورتين الزراعية و الصناعية.فالأولى أرجعت الأرض إلى أصولها و هم الفلاحون، و الثانية أرجعت خزائنها إلى أيدي أصحابها، فالثورة الثقافية يجب أن تعود إلى الأصل الشعبي المتمثل في التراث و التاريخ، و تحريره من سيطرة الأموات و سيطرة الاستعمار، و جعله في خدمة الشعب، بعد تزويده بالفكر العلمي. و في خضم هذا التحليل للثورة الثقافية و دعوته إلى الرجوع

إلى الأصل التراثي و تحليله تحليلا فكريا موضوعيا يتساءل الدكتور شريط عما إذا كان هذا التحليل، و هذه الدعوة إلى العناية بالثورة الثقافية و اللغة العربية و التراث كافيان لجعل كل واحد منا يقوم بواجبه كل في منصبه، و يتحمل مسؤوليته في إنجاز جزء من الثورة الثقافية[27]؟

إن الدكتور شريط يرى من الظلم أن نضيق الخناق على الفلاح باسم الثورة الزراعية، و نمنعه من الاستفادة من إنتاجه و نفرض عليه نظاما معينا في التسويق، و الإنتاج و التخطيط و نمنع أبنائه من الإرث، ثم يأتي الموظفون في الإدارة و المسؤولون في الدولة لاستغلال الأرباح التي حققها الفلاحون، إنّ الثورة الثقافية التي لا تقضي على مثل هذه المظالم بعيدة عن الثورية.

الثورية هي ضبط و صرامة على الجميع معلما كان أم طبيبا أو عاملا بسيطا، و توزيع عادل للثروة، و إنزال العقاب على كل مقصر و مخطئ. و هذا هو الجو الذي يجب أن يحيط بالثورة الثقافية، حيث يشعر كل مواطن بأن الثورة الثقافية ضريبة يتحملها الجميع و يخف حملها على الجميع. و لكن هذه الثورة التي أرادت الجزائر أن تصنعها بعد ربع قرن من الثورة المسلحة من الصعب إنجاحها و هي قائمة في العراء الإيديولوجي، لأن الثورة الفكرية لا يمكن أن تخرج إلى بر الأمان، إن لم تنطلق من إيديولوجية معينة تسطر الأهداف و الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف. و لهذا فإن الدكتور شريط يرى أنه رغم العراء الإيديولوجي يمكن لها أن تنجح إن حصل تجنيد ممن يهمهم الأمر مسؤولون كانوا أم مناضلون "إن الثورة الثقافية قادرة على أن تتغلب حتى على الموت إذا وقف المسؤول و المناضل في الصف الأمامي من التضحية و إعطاء المثل، ووقف المثقف في مقدمة المعركة الفكرية التي أصبحت اليوم هي مجال الصراع بين المجتمعات"[28] ربما أنّ الدكتور شريط لاحظ تقاعس المسؤولين و المثقفين في الميدان العملي، واكتفوا بالأقوال دون الأفعال، مما حوّل الثورة الثقافية و الثورتين الصناعية و الزراعية إلى سلعة لتجار الكلام و الخطب الرنانة إلى درجة أن أصبح الشعب لا يصدق ما يسمع، و لا يثق في الشعارات الجوفاء التي لا تزيد الشعب إلا نفورا.

و في هذا المعنى يقول ألبرت شفتر " أنّ لا سبيل إلى إقناع الناس بالقيمة الأخلاقية عن طريق الوعظ، بل لا بد أن تنشأ هذه العقلية الإيجابية في الإنسان نفسه"[29].

الثورة الثقافية إذن تبدأ من داخل الإنسان نفسه، خصوصا إن كان هذا الإنسان ممن يقود عربة الثورة الثقافية. وانتقل الأستاذ شريط إلى الحديث عن الجامعة و البحوث الجامعية التي يقوم بها الجامعيون خارج الجامعة في مختلف ميادين البحث الزراعي و التكنولوجي، و علوم الأرض، هذه البحوث التي انصبت

على الجانب المادي، مهملة أو مهمشة التنمية البشرية، و هو ما يعيبه الأستاذ الباحث على هذه السياسة التي أفرطت في الاهتمام بالبلاد و إهمال الإنسان[30].

الدكتور شريط يرى أنّ الثورة الثقافية التي تهتم ببناء الهياكل المادية و تفرّط في الاهتمام بالإنسان، و هو جوهر العملية الثقافية هي ثورة مبتورة النتائج. و لكن يتساءل عمن تقع عليه المسؤولية، أتقع على الإطارات السياسية أم على الإطارات الفكرية؟ هو يحمّل المسؤولية لكليهما. و لكن كيف ذلك؟

السلطة السياسية مسؤولة إن همشت رجال الفكر، و أبعدت الجامعة من المساهمة في التفكير في المشاكل لإيجاد الحلول. و رجال الفكر الموجودون في هياكل السلطة مسؤولون إن سكتوا و باعوا آرائهم و أفكارهم في سوق المصالح الشخصية مقابل كسب رضا السلطة، و الحصول على بعض الامتيازات الزائلة بزوال الفترات و المراحل. و لهذا فإنّ الدكتور شريط يحمّل المسؤولية الكبرى للإطارات الفكرية داخل الحزب أو خارجه، لأن رجل الفكر هو المعوّل عليه في بناء الحضارة و الثقافة و تبقى العلاقة جدلية بين الإطار السياسي الذي يقدم الوسائل المادية، و الإطار الفكري الذي يقدم الوسائل البشرية[31]، لهذا فإنّ الدكتور عبد الله شريط يعلّق آمالا كبيرة على المجلس الوطني للبحث العلمي و على المنظمة الوطنية للبحث العلمي كذلك، لجعل ميدان البحث هو التنمية الشاملة، و خصوصا تنمية الثروة البشرية التي تبدو صعبة من حيث الجهد و الوقت لأن استيراد الأدوات المادية للتنمية الاقتصادية مسألة ممكنة، أما استيراد الإنسان من الخارج فغير ممكن نظرا لطبيعة المهمة، إنّها مهمة إستراتيجية و إيديولوجية في الوقت نفسه. فالإنسان المستورد يحمل معه فكرا مستوردا قد يهدم أكثر مما يبني، و يفسد أكثر مما يصلح، و إنّ الكثير من المآسي الفكرية التي نشكو منها في الجزائر إنما مردها إلى تسرب أفكار الهدم عبر البعثات الثقافية و العلمية التي استعانت بها الجزائر في عملية التعريب، و التعاون الثقافي و العلمي. و قد أعاب الأستاذ على أساتذة الجامعة الذين يجتمعون في إطار البحث العلمي ليبحثوا في مشاكل البلاد الاقتصادية و الاجتماعية و لا يجتمعون لبحث مشاكل الجامعة و محتواها العلمي و التربوي[32]. و لكن هذا الأسلوب في العمل لا يتحمله الأساتذة و لكن يتحمله النظام السياسي الذي يحاول تقزيم مشاركة الأستاذ في التسيير، و التنظيم العام. صحيح إنّ الأساتذة يتحملون جزءا من مسؤولية التغيير و إجراء ثورة داخل المنظومة الجامعية، تسييرا و تنظيما، شكلا و مضمونا، و لكن ما عساهم يفعلون عندما تكون القبضة في يد غير أيادي الجامعيين. و تحدث الأستاذ شريط عن اللجنة الوطنية للتعريب التي حظيت بوسائل مادية و بشرية، و قام أعضاء هذه اللجنة بمجهود جبار في البحث و التقصي و جمع المعلومات و الوثائق على أوسع نطاق، و لم ينجز إلا تعريب الواجهات و الجدران بعد عامين من العمل، في حين تم إهمال تعريب الإنسان، لأن اللجنة المكلفة كانت تظن أن تعريب المحيط هو الذي يساعد على تعريب

الإنسان[33]. واعتبر الأستاذ شريط أنّ تعريب الإنسان هو أصعب عملية من تعريب الجامعة، لأنّ هذا العمل يحتاج إلى ذوي العزيمة القوية، و الإيمان الصادق، و الإرادة الصلبة. تعريب الوثائق و الجدران لا يتطلب وقتا طويلا، و لكن تعريب الإنسان عكس ذلك، فهو يتطلب القناعة و الإيمان بالقضية، و الصدق في العمل و الإخلاص في الممارسة. وهي العوامل و الأدوات التي كانت تنقص في تفصيل العملية، بل هي التي كانت تعطل العملية و تعرقل الجهود. واستدل الأستاذ شريط على فساد الإدارة و الإهمال المتفشي في جميع المصالح و المراكبات السياحية و التجارية و كل المصانع بما فيها من عتاد، بإهمال تكوين الإنسان، فالدولة أنفقت مئات الملايير على شراء الآلات و المركبات، و لكنها قبضت يديها على تكوين الإنسان. و عندما أقول الإنسان، أقصد الإنسان المفكر و المكون للإنسان الذي يقود عربة الثورة الثقافية. و قد لاحظ الأستاذ شريط الفرق في الإنتاج بين الدول الأوروبية و الإنتاج عندنا في الجزائر .البلدان الأوروبية تنتج ضعف ما ننتجه نحن، و بعتاد قديم لأن إنسان هذه الدول متطور تقنيا، و خلقا و سياسيا. في حين ما ننتجه نحن بأدوات جديدة، أقل بكثير، لأن الإنسان عندنا يعمل بأدوات جديدة، و لكنه يشتغل بتفكير قديم، و بدائي. و بعقلية (دار البايلك) فالأزمة إذن أزمة الإنسان و جوهر الإنسان هو الوعي و الضمير و الروح الوطنية، ألم يأن للذين تحملوا مسؤولية هذا الوطن، أن يدركوا هذه الحقائق و يراجعوا سياستهم، و يستشعروا ضمائرهم، و يدركوا أن دوام الحال من المحال، و أنّ لعنة التاريخ لا ترحم، و من لم تفده أيامه العبر كان له العمي أولى بالبصر.

و الأستاذ شريط ينبه الهيئات الحاكمة إلى كيفية تجاوز الوضعية التنموية المتردية، بمجموعة من الحلول و الوسائل و هي:

استثمار الأساتذة و الطاقات البشرية و تجنيدهم تجنيدا وطنيا، و جعلهم فاعلين و ليسوا مجرد مدرسين، حتى يشعروا بأنهم معنيون بمهمة نبيلة و هي تطوير الجامعة لجعلها مركز إشعاع علمي و معرفي و ثقافي، و ليست مجرد وسيلة لتخريج حملة الشهادات للتوظيف و الاسترزاق. و ذلك يكون بتحسيسهم بأنهم معنيون بالدرجة الأولى بقضية الثورة الثقافية التي من أهدافها الأولية خلق إطارات كفؤة لتنمية البلاد في جميع الميادين، الصحية و الاقتصادية و الثقافية، و الفكرية. و هنا يقترح الأستاذ شريط على الدولة بما فيها الحزب بصفته القائد الأعلى للتسيير و التوجيه إشراك الأساتذة الجامعيين بمختلف رتبهم في الحوار الدائر حول سياسة الدولة عامة و سياسة التكوين الجامعي خاصة، لإشعارهم بأن رسالتهم هي أجلّ رسالة و أنبل وظيفة من وظيفة التصنيع و بناء الهياكل المادية. الدولة تصرف أموالا طائلة على الجهاز الدبلوماسي في الخارج و تعمل المستحيل لخدمة إطارات الدولة بمنحهم الامتيازات المختلفة دون أن يقدموا خدمة جليلة للبلاد، في حين لا تعطي العناية نفسها للأستاذ الجامعي، معتبرين إياه أنه لا يقوم بمجهود جسدي و لا ينتج الثروة المادية التي

تنتجها المصانع و المعامل، و السلطة فتحت باب الحوار مع الطلبة المتطوعين في الثورة الزراعية و أشعرتهم بأن هذه الثورة هم المعوّل عليهم في إنجاحها، و لكنها لم تقم بالعمل نفسه مع الأستاذ الجامعي الذي يكوّن هؤلاء الطلبة.

صحيح إنّ الأستاذ الجامعي لا تسمح له ظروفه بالمشاركة المباشرة في الأعمال التطوعية التي يقوم بها الطلبة، لكن الأستاذ شريط يرى بأنه يمكن تعويض العمل التطوعي بعمل أكثر أهمية داخل الحرم الجامعي، و هو التنظيم التنموي و محاورة الطلبة في اجتماعات دورية لبحث المشكلات العلمية و البيداغوجية و محتوى البرامج التعليمية و مدى تأثير هذه البرامج في الحقل العلمي النافع للمواطن و الوطن. و ما هو مجرد تقليد للماضي أو للأجنبي، أو انسياق مع تيار ما تعودناه[34]. كما يجب أن تبحث هذه الاجتماعات مسألة الإطار الجامعي الشاب المنقطع عن الإطار الأكبر منه سنا، و الإطارات الشابة التي لم تجد لها مكانا في الجامعة التي تزخر بعدد من الإطارات الأجنبية و العراقيل الموضوعة أمام هؤلاء الشبان، و التي تعرقل طريقهم للوصول إلى مرتبة الكبار.

إنّ الهيئة الوطنية للبحث العلمي مطالبة بتناول هذه القضايا الشائكة و البسيطة في الوقت نفسه. بسيطة، لأنها تحتاج فقط إلى التخلص من الأنانية المفرطة، و معقدة لأنّ خيوطها مرتبطة بين الجانب الفكري و الإيديولوجي، و البيروقراطي و كذلك النفسي في الوقت نفسه. و إذا حللنا هذه العناصر نجد أن العنصر النفسي هو سبب المعضلات كلها. فالشعور بمركب التفوق واحتقار الغير و ربما الحسد و الأنانية كل هذا يدفع ببعض من يملك زمام اتخاذ القرار لخلق العراقيل البيروقراطية لترجيح إيديولوجية على حساب الأخرى، و هذا يؤدي إلى الدخول في صراع الكتل الإيديولوجية، فتتغلب الإيديولوجيا الأقوى على الإيديولوجيا الأضعف، و القوي هو من يملك سلطة القرار و يبقى البقاء للأقوى، و تضيع جهود التنمية و تتعطل عجلة الثورة الثقافية التي لا نجد لها أثرا إلا في النصوص و الخطب الرنانة، و الشعارات الجوفاء. و الدكتور شريط يرى أنه من غير الطبيعي أن نهتم بالبحث في إنتاج البترول و نترك ما تعانيه الجامعة من ضعف في التسيير و التأطير. الهيئة الوطنية للبحث العلمي مطالبة بإعطاء العناية الكافية لإصلاح الإدارة التي تعمل في المستقبل لتنمية ثروتنا البشرية على المستوى الوطني[35].

و قد حدد الدكتور شريط الغاية القصوى للجامعة و هي الوصول بالجامعة إلى أن يصبح كل طلبتها و أساتذتها قوة علمية منظمة تعطي أقصى حد من المردودية العلمية كمّا و كيفا.

و قد سجل الدكتور شريط تخرج الكثير من الجامعيين الذين أنفقت عليهم الدولة أموالا طائلة دون أن تعلم الجامعة إلى أي وجهة ذهبوا. و هنا يسجل معضلة أخرى و هي سوء التوجيه و سوء التخطيط حسب احتياجات البلاد و دون تنسيق بين الوزارات. و إذا أخذت الهيئة الوطنية للبحث العلمي هذه المشكلة بعين الاعتبار نكون قد اقتربنا من صلب المشكل، و شرعنا في التفكير للبحث عن الحلول.

صحيح أنّ الحل المادي و الإداري لهذه المشاكل ليس في أيدي الأساتذة، و لكن الحل العلمي و التنظيمي و تخطيط سياسة التعليم التي تكون بمثابة الحل الدائم يقع على الجامعة، و ما فيها من الأساتذة و المفكرين، و لكن مع الأسف إنّ الجامعة زحزحت من موقع التنظير و التفكير، و حل محلها هيئات سياسية كان من المفروض أن تؤدي وظيفة التنفيذ و التطبيق، و بهذا حلت الشرعية السياسية و الثورية محل الشرعية العلمية و الفكرية، ثم نطالب الجامعة أن تفتح على المحيط و تنزل إلى المجتمع لتتلقف مشاكله و تتولى حل هذه المشاكل بتصورات تبقى حبيسة أدراج الجامعة. و الغريب في الأمر أن الذين خنقوا أنفاس الجامعة هو الذين يلقون عليها اللوم، و يتهمونها بالانسحاب من الميدان.

و الدكتور شريط يرى أنّ أجلّ ميدان و أحق ساحة يجب أن نصرف فيها الوقت و المناقشة و البحث هو الميدان المتعلق بالأداة التي نخوض بها معركة الثورة الثقافية في الجزائر. كما يرى ضرورة ربط الصلة بين الأسرة الجامعية و العناصر المثقفة في البلاد ممن يتواجدون في التعليم الابتدائي و الثانوي و وزارة الثقافة و الإعلام و العدل و الهيئات الثقافية التابعة للحزب و نعقد ملتقيات وطنية للنقاش تدرس فيها قضايا الإنسان الجزائري، و نقدم حلولا و مقترحات عملية للسلطة المعنية في البلاد[36]. و لكن المشكلة ليست في التوصيات، و لكن في إعطاء الأهمية لهذه التوصيات. ثم إنّ العبرة في الجو السياسي و الحرية الفكرية التي تسمح للجامعة بتشريح الواقع كما هو، حتى و إن أدّى هذا التشريح إلى مس جراح بعض من تمسهم التوصيات.

إنّ الدكتور شريط يلح على هذه الملتقيات لعقد صلة بين الجامعة و المحيط عامة، و بين السلطات العمومية على وجه الخصوص ليحدث التفاعل بين الفئات المثقفة و المحيط الخارجي عن الجامعة و إطلاع المجتمع على الأوضاع الثقافية و المهنية التي تعيشها الطبقة المثقفة، و يكون هذا العمل هو الأساس الذي نقيم عليه مهمة التنمية البشرية على نطاق الوطن. و لكن الدكتور شريط يسجّل ملاحظة على الأساتذة الجامعيين و هي ترفعهم عن المشاركة في النشاط الثقافي العام خارج قاعات التدريس و ميدان العمل الرسمي، و لكن إن كانت هذه الملاحظة تصدق على فئة فإنّها لا تصدق على فئات أخرى و هي التي همشتها المؤسسات السياسية في البلاد. حتى لا يفتح أمامهم باب الولوج إلى عالم السياسة خوفا على المناصب و على الكراسي، دون أن يعلم هؤلاء بأن الجالس على كرسي لا يستحقه، و لم ينله بكفاءته، يشبه العملاق الواقف على أرجل

من طين. و الدكتور شريط يلاحظ أن الترفع عن المشاركة في النشاط العلمي و الثقافي العام تمس القيمة العلمية للأستاذ، و لكن بعض الهيئات السياسية تتحاشى إشراك الجامعيين في هذا النشاط، حتى يخلو لهم الجو السياسي و يظهروا في مظهر المثقف أمام الجمهور العام. الدكتور شريط يعتبر ترفع الأستاذ الجامعي عن النشاط الثقافي بورجوازية ثقافية، لكن رجل السياسة من جهته حين يعزف عن إشراك الأستاذ الجامعي يعيش أمية سياسية. و هو نسي أن إشراك الأستاذ الجامعي في النشاط الثقافي خارج أسوار الجامعة هو الذي يقلص مساحة الأمية الثقافية و السياسية عند الأميين الذين تلقفوا رمق المسؤولية الموهومة التي تحصلوا عليها بطرق ملتوية، و على حساب كرامتهم. و التعليم العالي بوجه خاص يوظف أكبر طاقة يقوم بها المجتمع، و لذلك ينبغي أن يبنى على تخطيط صارم يحصنه من الأخطاء و الفوضى، لأن الخسائر في الميادين الأخرى يمكن جبرها و تعويضها على المدى الطويل، أمّا الأخطاء في التعليم فإنّها تؤدي إلى سلسلة من الإختلالات و الأخطاء تعم كثيرا من القطاعات التي تبدو بعيدة عن التعليم.

إنّ الجامعة مخبر المجتمع ساهم من جهة في تطويره، و تتلقى من جهة أخرى نتائج ذلك التطوير فتفحصها و تقيمها و تتنبأ بمصيرها[37].

و العيب ليس في أن نخطئ الطريق، و لكن العيب في الاستمرار في السير في طريق نعرف أننا أخطأنا فيه، و لا نحاول الرجوع إلى الطريق الصحيح. و في اعتقادي إنّ سبب أزمات البلاد النامية هو الأنانية في التسيير و التصلب في المواقف و عدم الاعتراف بالخطأ، و إتباع سياسة خالف تعرف.

إنّ الدكتور عبد الله شريط – رحمه الله – يعلّق آمالا كبيرة على تكوين منظمة للبحث العلمي، و إنشاء مجلس وطني لها يضم قطاعات الإنتاج في البلاد، و هذا يعتبره مكسبا له أهميته، و كذلك إنّ إصلاح التعليم العالي من شأنه أن يخلّص التعليم من رواسب الاستعمار. و هذا كله يمكن للجزائر أن تفتخر به، و أن عدد الجامعات ينمو باستمرار، و هذا يدل على ازدهار و نمو التعليم، و لكن هذا أيضا يصحبه توالد المشاكل التعليمية و تضخمها. و الخطأ هو الاعتقاد أن حل المشاكل يكون بزيادة عدد الطلبة و الأساتذة و الهياكل. و لكن هذا حل و مشكل في الوقت نفسه في رأي الدكتور شريط، حل لتقليل نسبة الأمية، و رفع مستوى التعليم و التكوين، و مشكل لأنه يتطلب إمكانيات بشرية و مادية لاحتواء العدد المتزايد من الطلبة. و للخروج من هذا الإشكال يرى الدكتور شريط ضرورة البحث عن الأداة المتخصصة و المتوالدة باستمرار، فهذا العمل لا يقوم به إلا الأساتذة الجامعيون لأنهم أدرى بعناصر المشكلة و حيثياتها، فلا السلطة قادرة على هذا الحل، و لا الإدارة و لا الأحزاب السياسية، و أحسن خطوة تسهّل العملية هي التخطيط مسبق لأي إجراء إداري الذي يفرض فرضا فوقيا من طرف أناس بعيدين عن الميدان، و كثيرا ما يقوم وفد بزيارة إلى بلد صديق أو شقيق و

يطلع على كيفية سير جامعات هذا البلد أو ذاك، و يستورد خطة العمل و البرامج دون أن يفكر بأن لكل بلد ظروفه ووضعه الاجتماعي و الثقافي، و ليس من الضروري أن يصلح لبلدنا ما صلح لذلك البلد. و التخطيط يشمل عدد الطلاب و عدد الأساتذة الموجودين و المتوقعين، و كذلك محتوى البرامج و مواد الدراسة مع رصد الأولويات حسب أهميتها، و يكون البحث مستمرا لمعرفة عدد المعاهد و الكليات، و مدى تلبيتها لحاجيات المجتمع حاضرا و مستقبلا[38].

و الدكتور شريط – رحمه الله – يؤكد أنّ تعبئة الجماهير الشعبية للقيام بالعمل التنموي لا يكون بالاعتماد فقط على أجهزة الدولة و مؤسساتها الاقتصادية و المنظمات الجماهيرية و على رأسها الحزب، و إنما يقود هذه العملية المثقفون، "و لكن تعبئة المثقفين أنفسهم عملية مهمة، و ذلك بتعريفهم بظروف بلادهم و أحوال شعبهم و تحررهم من عقدة النقص، و عقدة الاستعلاء على الشعب"[39] فبعض المثقفين يحملون عقدة النقص إزاء الثقافة الأجنبية، و عقدة العظمة إزاء الشعب، حيث يشعرون بأنّ انتسابهم الفكري و الروحي للثقافة الأجنبية أقوى من انتسابهم إلى شعبهم الذي انحدروا منه. و هذه هي المعضلة الكبرى التي تجعلنا في أمس الحاجة إلى فكر إيديولوجي نزن به القيم الثقافية و الحضارية، و لأن نقص هذا الفكر الإيديولوجي و النقدي من أهم عوامل الهجرة الفكرية في العالم الثالث، و المهاجر الفكري هو المثقف الذي يعيش في المجتمع، و يشعر دائما بغربته في هذا المجتمع، بحيث يرى كل شيء أجنبي عنه، في تعامله مع المجتمع الذي يعيش فيه، و محاربة هذه الظاهرة تبقى من أولوية الثورة الثقافية. و الثورة الثقافية من شأنها أن تحدث تغييرا جذريا في المنظومة القانونية و السياسية لتفضي إلى حرية التعبير التي تسمح بالاستماع إلى رأي الآخر مهما كان و من أية جهة كانت، لأنّ حرية التعبير كثيرا ما كانت سببا في هجرة الأدمغة، و قلة وسائل الإبداع و الإنتاج في البلد الأم. ثم يستشهد د.شريط بقول ابن خلدون الذي ألقى على الدولة تبعة ترشيد الشعب، بحيث تستطيع إفساده إذا كانت فاسدة، و تصلحه إذا كانت صالحة. و أكثر ما تصدق هذه القاعدة تصلح على الشعب الجزائري الذي كان يقابل البلايا بصدر رحب عندما كان قادته يتقدمونه إلى الموت. و بعد الثورة وجد مسؤوليه يتسابقون إلى متاع الدنيا و حياة البذخ و التبذير فبرهن هذا الشعب على أنه أقدر منهم على الفساد.

و الحديث النبوي الشريف يقول: "اثنان إذا صلحا، صلحت الأمة، و إذا فسدا فسدت، و هما الحاكم و العالم"[40]. لكن الكثير من أصحاب السلطة تفسدهم حاشيتهم بالتملق و إخفاء الحقائق و ستر المشاكل حتى تتراكم و ينفجر الشعب، و يظهر ما كان مستورا. إنّ المثقفين على قلة عددهم لا يشكلون قوة عددية في المجتمع تمكنهم من إعطاء الدفع القوي لحركة المجتمع، و لتفعيل الثورة الثقافية، و لكن رغم هذه القلة العددية يمكنهم أن يكونوا أداة توعية بقوة ثقافتهم و بتمسكهم بثقافة مجتمعهم لتبصير المجتمع لمعرفة العيوب و كشف

النقائص، و الوقوف على مواطن القوة الحقيقية التي تجعل من القلة كثرة، و من الكثرة قلة، في العملية التنموية، المتعلمون عندنا كثرة، و المثقفون عندنا قلة، و شتان بين المثقف و المتعلم، و الثورة التحريرية انطلقت بالقلة العددية، هذه القلة مثقفة و لم تكن متعلمة بالمفهوم الأكاديمي، و لكن هذه القلة حوّلت العملية التحريرية إلى بركان. و لم يتسن لهذه القلة أن تفعل فعلتها إلا بالبدء بنفسها، و أن تعطي المثل بسلوكها و تضحيتها، و تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة لخدمة الثورة الثقافية و إشعاع نورها على المجتمع، و ليس بخدمة الثروة المادية و ملء الجيوب بها. و الفرق بعيد، و المسافة شاسعة بين عباقرة الشعوب الحية، و عباقرة الشعوب الميتة. و الخلاصة أنّ مفهوم الثورة الثقافية في فكر الدكتور شريط – رحمه الله – مفهوم شامل و معقد، و لكنه في متناول التحقيق إن كانت للسلطة السياسية رغبة في ذلك، ووفرت الإمكانات المادية و المعنوية، و أعطت فرصة المشاركة في هذه العملية لذوي الاختصاص المطالبين بالمساهمة بما يملكون من قدرات علمية و فكرية و الانطلاق من أصول الثقافة، و هي اللغة الوطنية الجامعة لشتات المجتمع، و التراث الذي تتم غربلته و نقده لتنقيته من الشوائب التي علقت به طيلة فترة الانحطاط، مع اتباع سياسة التخطيط المحكم و مراجعة الخطوات السابقة قبل الشروع في الخطوات اللاحقة، و نزول المثقف إلى الشعب لسماع انشغالاته و التخلي عن مركب النقص و الاستعلاء، و السلطة من جهتها مطالبة بتوفير الجو النفسي و الاجتماعي و المادي للباحث و المفكر، و الاستماع إليه و إشراكه في العمل السياسي الذي تعتبره الثقافة من جوهرها. و بهذا تصبح الثقافة في خدمة السياسة، و السياسة في خدمة الثورة الثقافية.

أ.د. سعيد شريفي

الهوامش

1- عبد الله شريط: المشكلة الإيديولوجية و قضايا التنمية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980، ص109

2- عبد الغني عبود الإيديولوجية و التربية، دار الفكر العربي، مصر ،1978 ص25.

3- إلياس فرح، تطور الإيديولوجية العربية الثورية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت 1979 ص9.

4- توفيق نبيل محمد السمالوطي، الإيديولوجيا و قضايا علم الاجتماع دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، 1989، ص29.

5- عبد الله شريط، مجلة الفكر الإسلامي، منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، م 5 أوت 1972، ص105 .

6- جميل صليبة، المعجم الفلسفي، بيروت 1973، ص381.

7- وصفي عاطف، الأنتروبولوجيا الثقافية، دار المعارف، مصر1975، ص63.

8- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي 1969، ص109.

9- عبد الله شريط: مع الفكر السياسي الحديث و المجهود الإيديولوجي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص180.

10- عبد الله شريط: المشكلة الإيديولوجية، مصدر سابق، ص109.

11- مجلة الدراسات العربية، عدد5، بيروت1979، ص57.

12- ألبرتو مورافيا، ثورة (ماو) الثقافية، ترجمة وحيد النقاش، المؤسسة العربية للدراسات و النشرن بيروت 1972، ص33.

13- عبد الله شريط، مقال في مجلة المجاهد الأسبوعي، عدد 1077، مارس 1981، ص34.

14- عبد الله شريط: المشكلة الإيديولوجية و قضايا التنمية، مصدر سابق، ص101.

15- عبد الله شريط، المصدر السابق، ص110.

16- عبد الله شريط، المصدر نفسه، ص111.

17- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين و آخر، دار الفكر، 1969، ص61.

18- المصدر نفسه، ص112.

19- المصدر نفسه، ص114.

20- المصدر نفسه، و الصفحة نفسها.

21- المصدر السابق، ص114.

22- المصدر السابق، ص115.

23- المصدر نفسه، ص116.

24- المصدر نفسه، و الصفحة نفسها.

25- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص69.

26- ألبرت اشفيتر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدويو زكي نجيب محمود، المؤسسة المصرية للطباعة و النشر، مصر 1963، ص34، ص117.

27- مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص13.

28- عبد الله شريط، مصدر سابق، ص117.

29- المصدر السابق، ص 120.

30- ألبرت اشفيتر: مرجع سابق، ص120.

31- عبد الله شريط، مصدر سابق، ص121.

32- عبد الله شريط، المصدر السابق، ص122.

33- المصدر نفسه، ص123.

34- المصدر نفسه، ص125.

35- المصدر نفسه، ص125.

36- المصدر نفسه، ص126.

37- مقال لمحمد العربي ولد خليفة: جريدة الشعب الثقافي عدد 177/02/24.

38- عبد الله شريط، مصدر سابق، ص129.

39- المصدر السابق، ص130.